مخربات الإنسان الأربعة

خطبة الجمعة للدكتور محمود أبو الهدى الحسيني في جامع العادلية بحلب بتاريخ 2008/10/10م

قد يتعمَّر باطن الإنسان ببعض الأنوار، لكن هذا الإنسان ينبغي عليه أن يحذر من مُخرِّباته، وقد أشار هدي النبي صلى الله عليه وسلم إلى أربعةٍ من المُخرِّبات التي تُخرِّب الفرد والجماعة، ورتَّبها في حديث شريف قال فيه صلى الله عليه وآله وصحبه وسلم: (إذا رأيت شُحًّا مُطاعًا، وهوى مُتَّبَعًا، ودنيا مُؤثَرة، وإعجابَ كلِّ ذي رأي برأيه، فعليك بخاصة نفسك، ودع العوامّ، فإن من ورائكم أيامَ الصبر)وفي رواية: (فإن من ورائكم أيامًا الصبرُ فيهنَّ مثل القبض على الجمر، للعامل فيهن مثل أجر خمسين رجلاً يعملون مثل عملكم، قالوا: يا رسول الله، أجر خمسين منهم؟ قال: أجر خمسين منكم).

وإن هذا الأجر الذي بيَّنه النبي صلى الله عليه وسلم يدلُّ على عملٍ صعب ومُجاهدة مضنية يرتكبها هذا الذي يَثْبُت ويُحصِّن نفسه من هذه المُخرِّبات.

وفي ترتيب هذه الأربعة إرشادٌ نبويٌّ تربويّ يُلاحظ التدرُّج في هجوم الأربعة هذه واقتحامها باطنَ الإنسان:

أما المُخرِّب الأول الذي يتعرّض المسلم له فإنه الشُح المُطاع:

والشحُّ: إقتارُ النفس وحرصُها وابتعادُها عن الإنفاق، وأما كونُه مُطاعًا فلأن محله في النفس، وحينما يتحول الإنسان إلى مطيعٍ لنفسه، ويكون الشُحُّ عنوانَ نفسه وملء وعائها، يصبح ذلك الشُحُّ مُطاعًا.

ومما يعطيه معنى لفظ المُطاع أن الناس يؤيدون هذه الفكرة، ويثنون عليها، ويقتدون بها... حتى تصبح عند الناس عادة مُطاعة، فإذا شذّ واحد من الناس عنها، ينظرون إليه على أنه شاذّ بينهم، وربما وصفوه بأوصاف شنيعة كالتبذير والإسراف.

وأصحاب النبي صلى الله عليه وسلم الذين تعمّر الإيمان في قلوبهم، تركوا أموالهم وديارهم وأهليهم... رغبة في الله ورسوله.

ألم يخرج صهيبٌ الروميّ رضي الله تعالى عنه عن ثروته التي جمعها في مكة كلِّها، وقال له أهل مكة: أتيتنا صعلوكًا ثم أخذت من أموالنا - وكان يصنع السلاح - فلما صرت غنيًّا وثريًّا تريد الخروج إلى محمد صلى الله عليه وسلم إلى المدينة؟ فقال لهم: تعلمون أني أرماكم، فأنا الذي أصنع سهامكم، وأقدَرُكم على الرماية، فكل سهم في كنانتي بواحد منكم، أما إن كنتم تريدون المال فإن المال هو في مكان كذا، وحدده لهم، فتركوه وخلوا سبيله، وحين وصل إلى المدينة لقي رسول الله صلى الله عليه وسلم، فوجد النبيَّ صلى الله عليه وسلم مُتبسِّمًا فرِحًا بما فعل، يقول له: (رَبِحَ الْبَيْعُ أَبَا يَحْيَى، رَبِحَ الْبَيْعُ أَبَا يَحْيَى).

هكذا تربّى أصحاب رسول الله صلى الله عليه وسلم، لأنهم فهموا معنى قوله تعالى: {لِلَّهِ مَا فِي السَّمَاوَاتِ وَمَا فِي الأَرْضِ} [البقرة: 284].

تحققوا في قلوبهم وبواطنهم بمعنى مالكية الله تبارك وتعالى لكل شيء، فلما طلبهم الله سبحانه وتعالى لم تتعلق قلوبهم بشيء.

وحين يوجد الشُحُّ المُطاع في الفرد أو الجماعة ينعدم التكافل، ويتحول الإنفاق إلى الشأن الخاص، وتضيع الروابط التي تضمن استقرار الجماعة، لأن التوجّه يصبح مُنصبًّا على استقرار الفرد لا على استقرار الجماعة، فتتفكك الجماعة ويتفكك المجتمع حين يسري بينهم الشُح المُطاع، وهو أول علامات الخراب.

فإذا تطوّر الخراب هُوجم باطن الإنسان بالوصف الثاني: الهوى المُتَّبَع:

ولا يكون الإنسان مُعمَّرًا بالأنوار حتى يكون مُتَّبعًا للوحي، قال تعالى: {إِنْ أَتَّبِعُ إِلاَّ مَا يُوحَى إِلَيَّ} [الأنعام: 50] أي لا أتبع إلاَّ ما يوحى إلي، وهكذا كان الإمام الأعظم صلى الله عليه وسلم.

وقيل لمن جاء وأُمِر باتّباعه: {لَقَدْ كَانَ لَكُمْ فِي رَسُولِ اللَّهِ أُسْوَةٌ حَسَنَةٌ} [الأحزاب: 21]

وقيل لهم: {وَمَا آتَاكُمُ الرَّسُولُ فَخُذُوهُ وَمَا نَهَاكُمْ عَنْهُ فَانْتَهُوا} [الحشر: 7]

وقال تعالى: {فَلا وَرَبِّكَ لا يُؤْمِنُونَ حَتَّى يُحَكِّمُوكَ فِيمَا شَجَرَ بَيْنَهُمْ ثُمَّ لا يَجِدُوا فِي أَنْفُسِهِمْ حَرَجًا مِمَّا قَضَيْتَ وَيُسَلِّمُوا تَسْلِيمًا} [النساء: 65]

فإذا تحوّل باطن الإنسان عن هذه القاعدة التي يكون عليها أهل الإيمان، الذين يلاحظون في كل خطوة من خطواتهم اتّباع وحي الله، ويلاحظون ما يمليه عليهم وحي الله، فيتبعون الوحي ويقتدون بأمر الله

المُنـــزل... حينما لا يكونون كذلك، فإن البديل الذي ينتظرهم حينما لا يتبعون وحي الله، إنما هو هوى النفوس، وهكذا يدخل المُخرِّب الثاني وهو الهوى المُتَّبَع، وتجد الإنسان مُعرِضًا عن حاكمية الله للإنسان، وحاكميته للكون، ويترك موازين الشريعة إلى موازين الهوى.

وهكذا تدخل الفوضى إلى حياة الإنسان وسلوكِه الخاص، وإلى أسرته ومعاملاته وعلاقاته القريبة والبعيدة..

ولماذا يضطرب العالم اليوم؟

أين القوة التي يتحدث عنها أولئك الذين يمكثون وراء البحار، وهم يتفاخرون بذلك النظام الوضعيّ الذي وضعوه؟

يقول تعالى: {يَمْحَقُ اللَّهُ الرِّبَا وَيُرْبِي الصَّدَقَاتِ} [البقرة: 276] هذا قانون الله.

وانتظروا..

إن لم تتخرّب بلادهم قريبًا فستتخرب بعد مدة من الزمن، لأن مجتمعًا يقوم على الربا مآلُه الخراب.

لقد دُمِّرت بلحظة الروابطُ بين ما يُسمى في الماضي بالاتحاد السوفييتي، ولم يُهاجَم بطائرات ولا بدبابات، لكنه انهار، لأن مقوّمات اتحاده زالت.

اليوم تعلن ولايات بأسرها، أنها تعجز عن دفع رواتب الشرطة، وتعجز عن دفع رواتب الموظفين..

أين ذلك التكبُّر والخيلاء؟ أين لغة النسور كما كانوا يقولون؟

إنه انحياز الإنسان وميله وانحرافه عن اتباع الوحي.

وعندما يتبع الإنسان الوحي يبقى في استقرار، لأن الذي وضع له الموازين التي تضمن استقراره إنما هو الله، وحينما ينحرف ولا يرضى إلا برأيه وهواه يزول استقراره.

وأعجَبُ حينما يجتمع مثقَّفون في بعض الأوقات ويكون حوارهم أو نقاشهم أو جدالهم بالآراء..

أيها الإنسان، غايةُ ما ترتقي إليه وما يرتقي إليه عقلك هو أن يفهم نصَّ الوحي الذي أوحاه الله، لأن الله هو مُعلِّم الإنسان، قال تعالى: {عَلَّمَ الإِنْسَانَ مَا لَمْ يَعْلَمْ} [العلق: 5]

وحينما تتوهّم أنك تقدر بعقلك على أن تضع البديل فأنت واهم وأنت جاهل.

ينبغي عليك في كل واقعة وفي كل حادثة أن تسأل عن حكم الله فيها..

وينبغي عليك في كل صغيرة وكبيرة أن تسأل عن حكم الله فيها، فإذا عرفت حكم الله فيها فتأدّب أمام حكم الله، وحيّد أهواءك ومخترعاتك وما يروق لك، فإن ما يروق لك ما هو إلا ناتجٌ إنسانيّ قد يخطئ وقد يصيب، لكنه لن يصيب إلاّ حينما يكون في دائرة اتّباع الوحي، وحين يحيد عن دائرة اتّباع الوحي ستكون ضائعًا قريبًا أو بعيدًا.

إذًا المُخرِّب الأول يُزيل التكافل بين الناس، ويُزيل التكافل في الجماعة، ويُزيل الروابط، لأنه يعني أن الإنسان يصبح فرديًّا وأنانيًّا، فإذا استطاع الإنسان أن يتجاوز هذه المحنة، وأن يجتاز الحاجز الأول والمُخرِّب الأول: الشُح، فإن عليه أن يتنبّه إلى أنه دخل في المستوى الثاني الذي ينبغي عليه أن يكون فيه مُتّبِعًا للوحي، وأن يجتنب الهوى ما استطاع، وألاّ يُقدّم العادة والتقاليد على أحكام الله التي أنـــزلها في كتابه، وألاّ يحيد عن اتباع سيدنا محمد صلى الله عليه وسلم: (لا يؤمن أحدكم حتى يكون هواه تبعا لما جئت به).

فحينما يتحوّل هواك إلى تابع ولا يكون متبوعًا، عندها تجتاز الحاجز الثاني، وتأمن العنصر المُخرِّب الثاني.

وبعد ذلك تنتقل إلى المستوى الثالث، وتجد نفسك أمام المُخرِّب الثالث وهو: الدنيا المُؤثِرة:

إنها معادلة ينبغي على المؤمن أن يعيها، وهي: {وَلَلآخِرَةُ خَيْرٌ لَكَ مِنَ الأُولَى} [الضحى: 4]

وكذلك: {وَالآخِرَةُ خَيْرٌ وَأَبْقَى} [الأعلى: 17]

ولا يمكن أن يتميّز المؤمنون عن المادّيين إلاّ بهذه القاعدة.

وحينما تهتز هذه المعادلة، فيُؤْثِر هذا الإنسان الدنيا على الآخرة في أي حركة من حركاته، وفي كل معاملة، وفي كل كلمة، وفي كل فعل... تزنه على هذه المعادلة.

ألم يقل سحرة فرعون حين جاءهم بينات الله: {لَنْ نُؤْثِرَكَ عَلَى مَا جَاءَنَا مِنَ الْبَيِّنَاتِ وَالَّذِي فَطَرَنَا} لأنهم آثروا الآخرة، {فَاقْضِ مَا أَنْتَ قَاضٍ} [طه: 72]

فحينما يقول الإنسان للآخرة: لن نؤثرك، بدلاً من أن يقول للدنيا: لن نؤثرك، عندها سوف يضطرب الإنسان.

اجعل هذه القاعدة في المستوى الثالث أمامك، وحينما يقدّم الإنسان الدنيا على الآخرة يضطرب ميزان إيمانه، ويضعف إيمانه ويضيع، لأنها العلامة الفارقة بين المؤمن والمادِّيّ.

فإذا استطاع أن يتجاوز محنة الشُح المطاع، ومحنة الهوى المُتّبَع، ومحنة الدنيا المُؤثَرة، وتنوّرَ قلبه، فأصبح مُنفِقًا، وأصبح جوادًا، وأصبح يستشعر بحسه الباطن ما يعانيه الآخرون، وأصبح يبحث في المستوى الثاني عن أحكام الله، وأصبح يريد الآخرة، تبقى المحنة الأخيرة التي عندها يتزلزل الرجال، ويثبت الصدّيقون وهي:

وإعجاب كل ذي رأي برأيه:

وعندما يحصل إعجاب كل ذي رأي برأيه تتفكك الجماعة، لأن الذي يضبط سلوك الجماعة إنما هو الشورى والرأي الجماعيّ، فحين يحصل إعجاب كل ذي رأي برأيه تزول روابط الجماعة، لكن حينما يُفوّض الفرد رأيَه الخاصّ للرأي الجماعيّ تتماسك الجماعة.

ولا يشذّ من يشذّ إلاَّ حينما يُعجَب برأيه.

وحينما يحصل إعجاب كل ذي رأي برأيه تغيب الجماعية التي كانت مُنضبطة بالشورى، والشورى هي التي تُشكّل القلعة والحصن للجماعية، فبوجود الشورى أنت في قلعة حصينة، لكن حين يتمرّد رأي الفرد من خلال الإعجاب الباطن، وحين يستخف بالرأي الجماعيّ ويرى أن رأيه بسبب مزية خاصة فيه يتفوق على الرأي الجماعيّ، عندها يكون خرابه، لأن عزل الفرد عن الجماعة يعني أنه معرَّض للابتلاع: (إِنَّمَا يَأْكُلُ الذِّئْبُ مِنْ الْغَنَمِ الْقَاصِيَةَ).

لأنه وإن وافق في الظاهر برأيه الجماعةَ لكنه في الباطن مُعجَب برأيه.

ولقد ذُكر في أحكام الشورى أن الإنسان حينما يُستشار في الجماعة، فإن أخذوا برأيه استغفر الله لأنه قد يكون سبب إهلاكهم، وحينما لا يؤخذ برأيه يحمد الله وينطوي رأيه في رأي الجماعة.

هكذا يُبنى الإنسان، وهكذا يُحصَّن على مستوى الفرد والجماعة، فإذا اجتهد الإنسان وبحث عن المُحصَنين الذين حَمَوا أنفسهم من هذه المحن الأربعة، وبحث وبحث و لم يجد إلاَّ الشُح المُطاع والهوى المُتبَع والدنيا المُؤثَرة وإعجابَ كلِّ ذي رأي برأيه، و لم يجد أخًا في الله حَصن نفسه من هذه الأربعة، فما الذي يفعله؟

النبي صلى الله عليه وسلم المُربِّي يوجّهه ويقول له: حصِّن نفسك، وألزم نفسك هذه الأربعة، ولا تلتفت إلى الناس إذا فشلوا في الامتحان...

حصِّن نفسك: {لا تُكَلَّفُ إِلاَّ نَفْسَكَ} [النساء: 84]

وبهذا التوجيه وقاه من الإحباط، وحماه من اليأس، وهكذا تكون التربية، ولذلك قال صلى الله عليه وسلم:

فعليك بخاصة نفسك:أي اجتهد حتى لا تقع في أحد هذه المُخرِّبات، وحصِّن نفسك من هذه المُخرِّبات الأربعة.

ودع العوامّ:أي دع الذين فشلوا في الامتحان.

ولماذا يخبر صلى الله عليه وسلم بعدها عن أيام الصبر؟

إنه يخبر عن زمنٍ مُعقَّد، يصبح فيه الحليم حيران، ولهذا سمّى أيامنا أيام الصبر فقال:

الصبر فيهن مثل القبض على الجمر.

فعليك أن تثبت حتى لا تقع في الشُح المطاع..

وأن تثبت مع أن من يحيط بك واقع في الهوى المُتبع وأنت لا تقع في الهوى المُتبَع..

وأن تثبت على إيثار الآخرة ومَن حولك يؤثرون الدنيا..

وأن تثبت على ترك الإعجاب بالرأي وغيرُك مُعجَب برأيه..

وما أصعب أن يكون الإنسان غريبًا بين أهله!

وما أصعب أن يكون الإنسان غريبًا بين أصحابه!

وما أصعب أن يكون الإنسان غريبًا بين أحبائه!

وما أصعب أن يكون الإنسان غريبًا بين إخوانه..!

إنه أصعب من القبض على الجمر لأنه يعيش حالة الوحدة، حتى وإن تجانست الأشكال، وإن تشابهت الأقوال، فليس المعوّل على تشابه الأقوال، فالكل يُحسن الأقوال، لكن المعوّل على تشابه الأحوال.

ولقد كان أصحاب النبي صلى الله عليه وسلم ربما يضعفون في بعض الأقوات، ويقصر نظرهم عن رؤية الحكمة، وأمثلة هذا كثيرة، ومن أقربها ما كان يوم صُلح الحديبية، فالصلح ينص على قضية عجيبة:

"إذا أسلم شخصٌ من مكة ووصل إلى النبي صلى الله عليه وسلم في المدينة، فيجب على النبي صلى الله عليه وسلم أن يعيده مقيَّدًا مأسورًا إلى المشركين في مكة، وإذا ارتدَّ مُرتَدٌّ عن الإسلام من المدينة إلى مكة، فلا يجب عليهم أن يعيدوه إلى النبي صلى الله عليه وسلم".

والنبي صلى الله عليه وسلم في تلك المرحلة كان متفوِّقًا في العدد والعُدّة على أهل مكة، وسيدنا عمر رضي الله عنه يفكِّر ويقول:

كيف تفعل هذا يا رسول الله؟

العقل لا يقبل ذلك، فنحن الأقوى، وما هي إلاَّ خطوات ونستطيع أن ندخل مكة يا رسول الله، فنحن على مشارف مكة، وما هي إلاَّ خطوات حتى ندخل عليهم ونفتح مكة، فكيف نعطي هذه الشروط؟

لكنه قبل أن يصل إلى رسول الله صلى الله عليه وسلم يذهب إلى أبي بكر، الذي استطاع أن يرتقي إلى مستوى لا ينظر فيه إلا بمرآة سيدنا محمد صلى الله عليه وسلم، ويقول عمر لأبي بكر: كيف تُوقَّع هذه الاتفاقية يا أبا بكر؟ فيقول الصدّيق لعمر: يا عمر، الزم غرزه، أي ضع يدك حيث يضع رسول الله صلى الله عليه وسلم قدمه.

والغرز: موضع موطئ القدم حين يركب الفارس الخيل.

قال: الزم غرزه، وما قال: أمسك بزمام الفرس، أي: ضع يدك عند موطئ قدمه.

وأنتم تعلمون أنه بحركة القدم يُوجِّه سير الفرس.

الزم غرزه، أي سِر حيث يسير.

قال: يا عمر الزم غرزه فإنه رسول الله صلى الله عليه وسلم.

وحينما يعجز عن إقناع أبي بكر، يتوجّه إلى النبي صلى الله عليه وسلم، ويقول له رسول الله صلى الله عليه وسلم مُختصِرًا: (إني رسول الله).

وتمضي الأيام ويظهر لعمر أنه كان مُخطِئًا حينما قدّم فكرَه وعقلَه والمشهدَ الحسِّيَّ القريبَ الذي يراه، وكان رسول الله صلى الله عليه وسلم ينظر نظرًا بعيدًا، وما هي إلاَّ مدة وجيزة حتى نَقَضت قريشٌ تلك المعاهدة، ودخل رسول الله صلى الله عليه وسلم فاتحًا بجيوشٍ جرارة، ليقف عند بيت الله العتيق ويزيح تلك الأصنام، ويعفو عَفْوَ القويّ، فيقول للكفار: (ما تظنون أني فاعل بكم؟) فيقولون: أخٌ كريم وابن أخ كريم، فيقول: (اذهبوا فأنتم الطُلقاء).

والأمثلة كثيرة، لكنها تطبيقاتٌ عمليةٌ لهذا الدرس التربويّ، الذي وجَّهنا إليه بخطواته العريضة الكبيرة رسولُ الله صلى الله عليه وسلم.

رُدّنا اللهم إلى دينك ردًّا جميلاً، واجعلنا ممن يستمعون القول فيتبعون أحسنه.

أقول هذا القول وأستغفر الله.